

كافور بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الشعرية :

لكافور الإخشيدي في الذاكرة العربية صورتان متناقضتان ؛ الأولى صورة تاريخية نقلتها لنا كتب التاريخ ، وهي صورة مشرقة تشع بكل صفات الحاكم الناجح من شجاعة وكرم وعدل ودهاء . أما الثانية ، فهي صورة شعرية مناقضة لكل الصفات السابقة ، ومصدرها شعر المتنبي الذي استطاع بشعره وسطوته البيانية أن يحيلها في ذهن المتلقي العربي إلى ما يشبه الحقيقة المتوارثة على مر الأجيال ، حتى أصبحت كلمة (كافور) بسبب ذلك مرادفة للخيانة ، والانتهازية ، والخبث ، والجبن . واتخذت صورته في ذهن القارئ العربي شكلا (كاريكاتوريا) مضحكا على الرغم من أن القارئ لكافوريات المتنبي يمكن أن ينتهي إلى تينك الصورتين المتناقضتين لشخصية كافور بشقيها المعنوي والمادي ؛ فهو في البداية أضفى عليه من الصفات المعنوية والمادية ما يضيفه عادة على ممدوحيه الأحرار من الكرم والشجاعة وحسن الشكل ، ولكنه حين خاب أمله عنده انطلق من موروته التاريخي والاجتماعي عن العبيد السود فسلبها منه مضافيا عليه نقيضها من الصفات . ومدحه وهجاؤه لكافور يدخلان في جدلية التناص بين النص الشعري والمتخيل الجماعي ، ويقوم التناص بين النص الشعري والمتخيل كما يقول الدكتور نادر كاظم " إما على المطابقة ، حيث النص يطابق المتخيل في دلالاته ويستمد منه كثيرا من صورته ، وإما على الانحراف ، حيث يقلب النص دلالات الأشياء كما هي معهودة في المتخيل ليبتكر دلالات جديدة تناقض دلالات المتخيل أو تتجاوزها . وليس في الأدب العربي من جمع بين هاتين العلاقتين ببراعة وإحكام كما فعل أبو الطيب المتنبي في كافورياته التي مدح بها كافور الإخشيدي بمصر ثم هجاه بها ؛ فهو إن شاء أن يهجو طابق بين مضامين شعره ومضامين المتخيل العربي وصوره ، وإن شاء أن يمدح انحراف عن مضامين المتخيل وصوره " ^١ . ومما يثير الانتباه أن ذاكرة القارئ العربي المعاصر لم تحتفظ إلا بالصورة السلبية التي جاءت في هجائه لكافور وأغفلت إغفالا كاملا تلك

^١ نادر كاظم . تمثيلات الآخر ، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط . (البحرين : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٤) ص ٤٧٠

الصورة المشرقة التي رسمها له المتنبي في مدائحه وتحدثت عنها كتب التاريخ ، وكان القارئ العربي المعاصر يترجم ما تختزنه المخيلة الجماعية عن العبيد فمال إلى تصديق المتنبي هاجبا لمطابقة نصه الهجائي متخيله الجمعي المتوارث عن العبد الخصي الذي لا يتمتع بصفات (الفحل الأبيض) .

كافور في الذاكرة التاريخية :

كل المصادر التي أشارت إلى تاريخ كافور السياسي تتحدث عن قائد وملك وسياسي وحاكم عادل ولم يشر أي مؤرخ إلى أي صفة من الصفات التي هجاه بها المتنبي سوى أنه عبد خصي اشتراه الإخشيد ثم أعتقه لعقله وحزمه وحسن تدبيره وهو واقع مناقض للثوابت في المخيلة الجمعية التي لا تجيز تلك الصفات إلا لحر أبيض ، وهو ما أغاض المتنبي حين أخفق في الوصول إلى هدفه كما سوف نرى لاحقا .

يقول ابن تغري بردي عن كافور: " الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدى ، الخادم الخصي ، صاحب مصر والشام والثغور . اشتراه سيده أبو بكر محمد الإخشيد بثمانية عشر ديناراً ورباه وأعتقه ، ثم رقاها حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير ، ولما مات الإخشيد في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة أقام كافور هذا أبناءه واحداً بعد واحد .^٢ " وينقل ابن تغري بردي عن الذهبي قوله عن كافور في تاريخ الإسلام " أنه كان يدني الشعراء ويجيزهم وكانت تُقرأ عنده السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان كريماً كثير الخلع والهبات حسن السياسة ، فطنا ، ذكياً ، جيد العقل داهية ، وكان له نظر بالعربية والأدب والعلم " ^٣ كما ينقل عن أبي المظفر قوله في تاريخه مرآة الزمان : " كان كافور شجاعاً مقداماً جواداً يفضل على الفحول " ^٤ وينقل ابن خلكان عن وكيل كافور قوله : " خدمت الأستاذ والجراية التي

^٢ ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . قدم له وعلق عليه : محمد حسين شمس الدين . (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢/١٤١٣) ج ٤ ص ٣

^٣ ابن تغري بردي ، ٨ / ٤

^٤ السابق ، ٥ / ٤

يطلقها ثلاث عشرة جراية في اليوم ، ومات وقد بلغت على يدي ثلاثة عشر ألفا في كل يوم ” ° ووصفه بأنه “ يرغب في أهل الخير ويعظمهم ” ٦ ويتحدث ابن خلدون في تاريخه عن صفاته ودهائه فيصفه بأنه “ من أعظم الملوك ، جوادا ، ممدوحا ، سيوسا ، كثير الخشية لله والخوف منه ، وكان يداري المعز صاحب المغرب ويهاديه ، وصاحب بغداد وصاحب اليمن ، وكان يجلس للمظالم في كل سبت إلى أن هلك . ” ٧ وقد خصص الدكتور مصطفى الشكعة فصلا عن مناقب كافر تحت عنوان (ما حقيقة كافر) في كتابه عن المتنبي أشاد فيه بعلمه وكرمه وشجاعته ، ومما قاله : “ الحقيقة كاملة أن كافورا كان من خير الرجال الذين حكموا مصر في تاريخها الطويل ، كان سياسيا بارعا ، وقائدا مظفرا ، وفارسا في الحرب شجاعا ، يحسن صناعة الحكم ويهيئ الخير والرخاء للناس ، وكان متعلما متقفا ذكيا فطنا كريما محسنا صاحب دين وورع وتواضع ... وتشير الوقائع التاريخية إلى أنه لولا كافر لانتهدت الدولة الإخشيدية بمجرد موت الإخشيد الأكبر ؛ ذلك أن كافورا هو الذي أقام أبناءه بعد وفاة أبيهم واحدا واحدا ، ولقد عزم الفاطميون على غزو مصر منذ وقت مبكر ولكنهم كلما هموا بذلك تذكروا أن كافورا هناك ، وكانوا يلقبونه بالحجر الأسود ويقولون : لن نستطيع فتح مصر قبل زوال الحجر الأسود ” ٨ ويضيف الشكعة : “ وإذا كان الغرض الأسمى من الحكم هو إسعاد الناس وتوفير الرخاء لهم ، فقد فعل كافر ذلك مع شعب مصر . لقد استغنى الناس في أيامه حسب رواية القلقشندي ، ولم يجد أرباب الأموال من يقبل الزكاة منهم فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبيتوا بها المساجد ويتخذوا لها الأوقاف ففعلوا ” ٩

° ابن خلكان . وفيات الأعيان ، تحقيق : إحسان عباس (بيروت : دار صادر ، د . ت) (٩٩ / ٤)

٦ ابن خلكان . ١٠٠ / ٤

٧ ابن خلدون ، كتاب العبر . (بيروت : دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٦٨) ٦٧٢ / ٤

٨ مصطفى الشكعة . أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين . (بيروت : دار عالم الكتب ، طب ٣ ، ١٤٠٣ / ١٩٨٣)

ص ص ، ٣٥٦-٣٥٧

٩ السابق ، ص ٣٥٨

هذا هو كافور في الذاكرة السياسية كما حفظتها كتب التاريخ ، وهذه هي صورته الحقيقية المشرقة التي أغاضت المتنبي وقد عرفها حق المعرفة، وسجلها صراحة في قصائده التي مدح بها كافورا كما سوف نرى في الفقرة التالية .

كافور في الذاكرة الشعرية :

قلنا في الفقرة السابقة إن المتنبي عرف قدر كافور الحقيقي حق المعرفة فأشاد بفضائله التي سجلتها كتب التاريخ غير أن كافورا ، العبد الخصي كما يراه ، لا يستحق أن يمدح لولا الضرورة التي أوقفته أمامه والأمل الكبير الذي كان يطمح إليه ، ويكفي أن نقرأ قوله في مطلع أول قصيدة مدح بها كافورا لنعرف مدى قسوة ذلك عليه ، يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أماتيا

وحين نقرأ مدائحه لكافور نجد كل الصفات التي أثبتتها المؤرخون له ، وذلك من

مثل قوله ، على سبيل المثال لا الحصر :^{١٠}

هذه دولة المكارم والرأفة	والمجد والندى والأأيادي
يزحم الدهر ركنها عن أذاها	بفتى ماردا على المراد
متلف مخلف وفي أبي	عالم حازم شجاع جواد
أجفل الناس عن طريق أبي المسك	وذلت له رقاب العباد
كيف لا يُترك الطريق لسيل	ضيق عن أتية كل واد

ومثل قوله مخاطبا كافورا مسقطا في نفسه عن السواد على نفسية كافور وكأنه يواسيه بلونه الذي ابتلي به ويهون عليه ذلك ، وهي مفردات تتكرر في مدائحه وتتم عن رفضه المضمحل لمكانة كافور التي لا يستحقها :^{١١}

إن في ثوبك الذي المجد فيه لضياء يزري بكل ضياء

^{١٠} شرح ديوان المتنبي . وضعه عبد الرحمن البرقوقي . (القاهرة : الكتبة التجارية الكبرى . د ت) ١٣٧ / ٢
^{١١} المصدر السابق ، ١ / ١٥٨

إنما الجلد ملبس وبيضاض النفس
كرم في شجاعة وذكاء
من لبيض الملوك أن تبدل اللون
خير من ابيضاض القباء
في بهاء وقدرة في وفاء
بلون الأستاذ والسحناء

وقوله يخاطبه : ١٢

جرى الخلف إلا فيك أنك واحد
وإن مديح الناس حق وباطل
وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعا
وكنت له ليث العرين لشبله
لقيت القتا عنه بنفس كريمة
وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعا
وكنت له ليث العرين لشبله
لقيت القتا عنه بنفس كريمة

وقوله يذكر وفاءه لابن سيده الإخشيدي : ١٣

وليس له أم سواك ولا أب
ومالك إلا الهندواني مخلب
إلى الموت في الهيجا من العار تهرب
وأنت الذي ربيت ذا الملك مرضعا
وكنت له ليث العرين لشبله
لقيت القتا عنه بنفس كريمة

وهو في هذه الأبيات يمدحه بالخالل والسجايا التي عرف بها وحفظها له تاريخه السياسي الذي سجله المؤرخون ، فالكرم والشجاعة والذكاء والفتنة والوفاء كلها صفات شهد بها التاريخ والمؤرخون لكافور كما رأينا آنفا ، وعرفها المنتبي ومدحه بها على الرغم من تناقضها مع موروثه الاجتماعي الذي لا يرى العبد الخصي أهلا لتلك الصفات، وكانت تلك الصفات المشرقة هي سبب قدومه إليه ؛ فقد روى ابن خلكان أنه " لما كثرت الزلازل بمصر في أيام كافور أنشده محمد بن عاصم قصيدة قال فيها :

ما زلزلت مصر من سوء يراد بها لكنها رقصت من عدله فرحا

فأمر له بألف دينار ، وقيل إن عطاءه ذلك حث المنتبي على المسير إلى مصر " ١٤

١٢ المصدر السابق ، ١ / ٣٢٦

١٣ المصدر السابق ، ١ / ٣٠٩

١٤ ابن خلكان ٤ / ١٠٣

لم يخطئ المتنبي حين أثبت لكافور تلك الصفات والفضائل على الرغم من أنه لم يكن صادقاً في مدحه لاحتقاره الرجل منذ قدومه إليه ولكن سماعه بكرم كافور غير المحدود أغراه بأمل غير محدود فذهب بعيداً في تصور ذلك الكرم ؛ فجاء إلى مصر يحمل أملاً كبيراً يضيق عنه كرم أي ملك يعرف طموح المتنبي غير المحدود إلى السلطة ولم يسع المتنبي الانتظار حتى يقوي موقعه عند كافور، بل صرح بذلك الأمل في أولى قصائده أمامه ، وألح عليه فيما تلا من قصائد ، من مثل قوله في قصيدته الأولى :^{١٥}

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا

وقوله في قصيدة أخرى :^{١٦}

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا بمن على آثار موهوب

وقوله تصريحاً لا تلميحاً وكأنه يعلن عن نفاذ صبره :^{١٧}

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

غير أنه حين خاب أمله الكبير في الولاية تتكر لجميع تلك الصفات الجميلة وجدها في نفسه ، وراح ينقض كل ما قاله من مديح بهجاء مُرَّ صَوَّرَ فيه كافورا بصورة أبعد ما تكون عن صورته الحقيقية ، فحوله إلى رمز من رموز الخيانة والجبن والخفة العقلية ووصفه بكل الصفات التي تختزنها الذاكرة الجماعية عن السود والعييد الخصيان ، حتى إن كلمة (كافر) أصبحت في المعجم الشعري المعاصر ، كما سنرى ، مرادفة لتلك المعاني، ويمكن أن نرى مثالا لذلك في الأبيات التالية ، على سبيل المثال لا الحصر :

^{١٥} ديوان المتنبي . ٤٢٧/٤

^{١٦} السابق ، ١ / ٢٩٦

^{١٧} السابق / ١ / ٣٠٧

يقول من قصيدة : ١٨

وقد نام قبل عمى لا كرى
مهامه من جهله والعمى
أن الرؤوس مقرر النهى
رأيت النهى كلها في الخصى
يقال له أنت بدر الدجى
بين القريض وبين الرقى
فأما بزق رياح فلا
إذا حركوه فسا أو هذى

ونام الخويدم عن ليلنا
وكان على قربنا بيننا
لقد كنت أحسب قبل الخصى
فلما نظرت إلى عقله
وأسود مشفره نصفه
وشعر مدحت به الكركدن
وقد ضل قوم بأصنامهم
وتلك صموت وذا ناطق

ويقول من أخرى : ١٩

لا في الرجال ولا النسوان معدود
أو خانه فله في مصر تمجيد
فالحر مستعبد والعبد معبود
إن العبيد لأنجاس مناكيد
يسيئ بي فيه كلب وهو محمود
وأن مثل أبي البيضاء موجود
تطيعه ذي العضاريط الرعايد
لكي يقال عظيم القدر مقصود
لمستضام سخين العين مفؤود
أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم قدره وهو بالفلسين مردود
في كل لؤم وبعض العذر تفنيد
عن الجميل فكيف الخصى السود

من كل رخو وكاء البطن منفتح
أكلما اغتال عبد السوء سيده
صار الخصى إمام الأبقين بها
لا تشتت العبد إلا والعصا معه
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا
وأن ذا الأسود المثقوب مشفره
جوعان يأكل من زادي ويمسكني
إن امرأ أمة حبلى تدبره
من علم الأسود المخضى مكرمة
أم أذنه في يد النحاس دامية
أولى اللئام كويفير بمعذرة
وذاك أن الفحول البيض عاجزة

١٨ شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى ، د ت) ١ / ١٦٠
١٩ المصدر السابق ، ٢ / ١٣٩

وفي قصيدة أخرى يقول :^{٢٠}

أين المحاجم يا كافر والجلم
تقوده أمة ليست لها رحم

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم
لا شئ أقبح من فعل له نكر

ويقول أيضا :^{٢١}

كان الحر بينهم يتيم
غراب حوله رخم وبوم
مقالي للأحيمق يا حلیم
مقالي لابن آوى يا لنيم

حصلت بأرض مصر على عبيد
كان الأسود اللابي فيهم
أخذت بمدحه فرأيت لها
ولما أن هجوت رأيت عيا

ويقول في قصيدة يائية :^{٢٢}

وجبنا ؟ أشخصا لحت لي أم
مخازيـــــــــــــــــــــــا
رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
من الجهل أم قد صار أبيض صافيا
ومشيك في ثوب من الزيت عاريا
أفدت بلحظي مشفريك الملاهيا

أميئاً وإخلافاً وغدرا وخسة
وتعجبني رجلاك في النعل ، إنني
وإنك لا تدري ألونك أسوداً
ويذكرني تخييط نعليك شقّه
فإن كنت لا خيراً أفدت فإنني

هاتان صورتان لكافور قدمهما المتنبي للقارئ ، ولسوء حظ كافور فقد تضافرت
ضده الظروف السياسية المعاصرة في مصر التي كان حاكما لها وما تختزنه الذاكرة
العربية في المتخيل الجماعي من صورة نمطية للعبد الخصي وعن مكانته في المجتمع
العربي ، كل هذه الظروف جعلت كافورا ضحية مرة أخرى لشعراء معاصرين وقعوا
تحت هيمنة المتخيل الجماعي فلم يروا من كافور إلا الجانب السلبي الذي يطابق ما

^{٢٠} المصدر السابق ، ٤ / ٢٨٠

^{٢١} المصدر السابق ، ٤ / ٢٨٢

^{٢٢} المصدر السابق ، ٤ / ٣٣٢

تختزنه ذاكرتهم الجماعية عن العبيد الخصيان فانساقوا وراء الصورة السلبية التي رسمها له المنتبى ، وهذا ما سوف نراه في الفقرة التالية .

كافور في الشعر المعاصر :

تردد اسم كافور في الشعر العربي المعاصر مرتبطاً باسم المنتبى لدى بعض الشعراء العرب ، ولكنه جاء في إشارات عابرة ضمن الحديث عن المنتبى وتنقلاته بين سلاطين تلك الفترة دون أن يمثل ذلك موقفاً للشاعر أو قناعاً يمرر من خلاله رؤيته السياسية للأحداث في المنطقة العربية ، يُستثنى من ذلك شاعران معاصران هما : أمل دنقل وأحمد الصالح (مسافر) ؛ فقد حرص هذان الشاعران على توظيف شخصية (كافور) في قصائدهما معادلاً للخيانة لتمرير رؤيتهما للأحداث التي وقعت في المنطقة منذ حرب ١٩٦٧ حتى توقيع معاهدة كامب ديفد نهاية السبعينيات من القرن العشرين . لهذا سوف يكون تركيزنا في هذه الدراسة على هذين الشاعرين وذلك في الفقرة التالية .

أمل دنقل :

يعتبر الشاعر المصري أمل دنقل (ت ١٩٨٣) من أبرز الشعراء المعاصرين في العقود الأخيرة من القرن العشرين ، ولهذا الشاعر مكانة عالية وأثر بارز في حركة الشعر العربي الحديث. وقد كانت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ذات أثر عميق في نفسه ويتضح ذلك في قصيدته التي كتبها في الذكرى الأولى لتلك الهزيمة عام ١٩٦٨ بعنوان (من مذكرات المنتبى في مصر)^{٢٣} وقد استحضرت المنتبى وكافور ليمرر من خلالهما ما لا يستطيع قوله صراحة عن واقع الأمة آنذاك . والمنتبى في هذه القصيدة يبدو رمزاً للعروبة والإباء والحرية أمام كافور العبد الخصي الذي يحتجز المنتبى في قصره ،

^{٢٣} أمل دنقل . الأعمال الشعرية الكاملة (بيروت : دار العودة ١٩٨٥) ص ١٨٦

وذلك يعني تكبيل الحرية والأحرار وهو - كما يقول على عشري زايد - : " يعري من خلال توظيفه لهذا الموقف حقيقة بعض القوى الضعيفة المهزومة التي تحاول أن

تغطي ضعفها أمام العدو بممارسة السلطان على رعاياها في الداخل ، وإخفاها في صنع أمجاد حقيقية بكفاحها وصمودها باختلاق أمجاد دعائية زائفة على ألسنة الشعراء " ٢٤
وأمل د نقل يضع في مقابل كافر الجبان الذي يحاول " اختلاق أمجاد دعائية زائفة على ألسنة الشعراء " سيف الدولة الشجاع في حلب ، فيقول على لسان المنتبي ، ساخرا من كافر وادعائه الشجاعة ، وكأنه يعيد ما قاله المنتبي في هجائه قبل ألف عام حين عبره بلونه وشفته المنقوبة وعدم فحولته واتهمه بالجبن والخيانة :

أمثل ساعة الضحى بين يدي كافر
ليطمئن قلبه ، فما يزال طيره المأسور
لا يترك السجن ولا يطير
أبصر تلك الشفة المنقوبة
ووجهه المسود ، والرجولة المسلوقة
أبكي على العروبة
يومئ ؛ يستنشدني : أنشده عن سيفه الشجاع
وسيفه في غمده .. يأكله الصدا!
وعندما يسقط جفناه الثقيلان وينكفئ
أسير متقل الخطى في ردهات القصر
جاريتي من حلب تسألني " متى نعود "
قلت الجنود يملؤون نقط الحدود
ما بيننا وبين سيف الدولة
قالت : سئمت من مصر ومن رخاوة الركود
فقلت : قد سئمت - مثلك - القيام والقيود

^{٢٤} على عشري زايد . استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر . (القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٩٧/١٩١٧) ص ١٣٩

بين يدي أميرها الأبله

لعنت كافورا ، ونمت مقهورا

ثم تبلغ السخرية غايتها في نهاية القصيدة حين يتهم كافورا بالجبن وعدم الكفاءة

مستعيرا بعض الأبيات من دالية المتنبى مضيفا إليها ما يتناسب مع السياق ، فيقول :

تسألني جاريتي أن أكتري للبيت حراسا

فقد طغى اللصوص في مصر بلا رادع

فقلت : هذا سيفي القاطع

ضعيه خلف الباب متراسا

(ما حاجتي للسيف مشهورا

ما دمت قد جاورت كافورا)

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى ؟ أم لأرضي فيك تهويد

نامت نواطير مصر عن عساكرها

وحاربت بدلا منها الأناشيد

نا ديت يا نيل هل تجري المياه دما

لكي تفيض ، ويصحو الأهل إن نودوا ؟

عيد بأية حال عدت يا عيد ؟

وأمل دنقل ينساق في هذه القصيدة وراء المتنبى مسكونا بالصورة النمطية التي

تختزنها الذاكرة الجماعية عن العبد الخصي الذي يحتل درجة متدنية في السلم

الاجتماعي ، وتظل هذه الصورة عالقة به مهما بلغ من الرفعة وعلو الهمة والوفاء لسيد

كما هي حال كافور الإخشيدي الذي عرفنا كيف أنصفه التاريخ وظلمه الشعر . وارتباط

الخيانة في المتخيل العربي والشعبي بالعبد الأسود جعل الشعراء المعاصرين ينصرفون

بشكل تلقائي إلى كافور مهملين بعض الحكام الذين عرفوا في تاريخنا العربي القديم

بالخيانة الصريحة لأمتهم وتاريخهم وأقرب مثل على هؤلاء الحكام هو الملك الكامل

الأيوبي الذي حكم مصر بعد كافور بمتنين وخمسين سنة وسلم بيت المقدس للصليبيين سنة

٦٢٥ بعد أن حرره عمه صلاح الدين الأيوبي من أيديهم بمعركة تاريخية تعتبر من المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام سنة ٥٨٣^{٢٥}

ما قام به الملك الكامل يعتبر خيانة للإسلام والمسلمين بكل المقاييس ، ولا عذر له في ذلك أمام ربه وأمه ؛ فلم يكن تنازله عن القدس للفرنجة درءاً لخطر أعظم منه ، بل كان خوفاً على سلطانه ممن حوله من إخوانه وبخاصة الملك المعظم عيسى . أما كافر - كما سنرى - فلم يرق بمثل هذا العمل الشنيع ، فلماذا ألصقت الخيانة بكافر - وهو لم يخن - وسكت عن الملك الكامل الأيوبي ، على الرغم من خيانتة الحقيقية المسجلة بالتاريخ كما رأينا وكلاهما حكم مصر؟ ولا أشك باطلاع الشعراء المعاصرين الذين انساقوا وراء المتنبي على هذا الجانب المظلم من تاريخ أمتنا العربية والإسلامية ، ولكن سطوة المخيلة الجماعية المتوارثة وما تخترنه من صورة نمطية عن العبد الأسود المخصي ، وسطوة المتنبي البيانية ما تركت للشاعر المعاصر فرصة للتفكير قليلاً فيما قاله المتنبي في هجاء كافر أو الانعتاق من هيمنة الصورة النمطية تلك . أضف إلى ذلك ، أن الملك الكامل لم يقيض له شاعر مثل المتنبي يهجو بسبب خيانتة ، والشعراء المعاصرون له سكتوا عن هذه الحادثة وآثروا السلامة .

كافر في شعر أحمد الصالح :

^{٢٥} انظر تفاصيل ذلك في مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل . تحقيق : حسنين محمد ربيع . (القاهرة : مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢) ٤ / ٢٠٦ يقول ابن واصل في أحداث سنة ٦٢٥ “ ... فحكى والذي رحمه الله ، وكان لما وقعت هذه الواقعة بالقدس الشريف ، قال : لما نودي بالقدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه ؛ إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين قدس الله روحه ”

على الرغم من أن شعر أحمد الصالح لا يمكن تصنيفه في مدرسة محددة من مدارس الشعر الحديث ، إلا أنني حين أقرؤه _ وأنا أقرؤه منذ زمن بعيد _ أجد فيه ملامح شاعرين معاصرين لا يمكن أن يخطئهما من له اطلاع على الشعر المعاصر ؛ هذان

الشاعران هما نزار قباني في قصائده العاطفية ، وأمل دنقل في قصائده الوطنية ، وعزز هذا الإحساس لدي رأى مماثل للدكتور سعد البازعي في دراسته لشعر أحمد الصالح ؛ فقد وجدته يميل إلى هذا الرأي قائلاً : “ ولو أردنا أن نضع شعر أحمد الصالح في مكان ما على خارطة الشعر العربي المعاصر لكان الأقرب إليه ، فيما يبدو لي ، منطقة تتلون بشعر نزار قباني وأمل دنقل على ما بين هذين الشاعرين من اختلاف بين ... فشعر أحمد قريب كل القرب من غنائيات نزار ووجدانياته ، ومن الاستنثارات التراثية والحس الوطني الطاغي في أعمال أمل دنقل . ”^{٢٦}

ابتدأ كافور يبرز في شعر أحمد الصالح منذ بدأت ملامح سياسة الصلح مع إسرائيل في السبعينيات من القرن الماضي . وقد جاء اسم (كافور) أول مرة في شعره في سياق سرد طويل لكثير من الشخصيات التاريخية ضمن قصيدته (قراءات في الزمن الغارب) المكتوبة عام ١٩٧٥/١٣٩٥ والتي يستعيد فيها كثيراً من الأحداث التي شكلت بعض ملامح التاريخ العربي والإسلامي في انتكاساته ، وهي قصيدة يقول عنها محمد صالح الشنطي : “ في قصيدة (قراءات في الزمن الغارب) يحتشد التاريخ وتكتظ به السطور في مشاهد مقتضبة لاهثة غير واضحة المعالم متمازجة على نحو خاص يجمع بينها خيط واحد ينتظمها كالعقد ، - ذلك هو الجانب السلبي البائس في هذا التاريخ ”^{٢٧}

وقد ورد اسم (كافور) في هذه القصيدة مجرداً من أي ملامح يمكن أن نستشف منها موقف الشاعر من شخصيته ، غير أن السياق السلبي الذي أشار إليه الشنطي في القصيدة يمكن أن نستشف منه موقفاً سلبياً أيضاً ، يقول في هذه القصيدة :

^{٢٦} سعد البازعي . ثقافة الصحراء (الرياض ١٩٩٢) ص ٩٦

^{٢٧} محمد صالح الشنطي . متابعات أدبية . (الدمام : الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ، ١٩٨٢/١٤٠٢) ص ١٤

قرضتكِ عرضي
وملكت (كافور) ما فيك من شهوة غرغرتني
فمن أين جئت بهذا الهوى المستكن بنبضي^{٢٨}

ثم تلا هذه القصيدة أربع قصائد أخرى كلها من وحي الأحداث السياسية المتعلقة
بالصلح مع إسرائيل وكلها وردت في ديوانه (انتقضي أيتها المليحة) الصادر عام
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، وهي كالتالي :

الأولى : بعنوان (في ضيافة أبي الطيب) وقد كتبها في ١٣٩٧/١٢/٢٧ أي بعد
سبعة عشر يوماً من زيارة السادات لإسرائيل ، وفيها يقول :

يا أبا الطيب !!
ما أنضجت جلد الأبق المخصي
ما كشفت عن سوءاته
إن أحداث " أبي المسك "
تعاويز حواة
وتعاويز القوافي - يا أبا الطيب -
أقوى أبجدية
يا أبا الطيب
هذا تخت بلقيس
وكافور ؟ !
بييع التخت في سوق المزادات
كأسلاب سبية
إن في عينيه أمراض النخاسات
وفي أذنيه يدمى الجرح
ما اهتزت به النخوة يوماً

^{٢٨} أحمد الصالح . عندما يسقط العراف . (الرياض والقاهرة : دار المريخ ، ١٣٩٨ / ١٩٧٨) ص ٥٨

أو سرت في نبضه روح الحمية
يا أبا الطيب ...؟!
- عفوا -
بُحّ صوت الشعر

والحراس .. باقون على الأفواه
كافور ...؟؟
سخين العين يسقي ربه الخمر
وخيل الله ..؟؟
تبكيها عيون بعد ما زالت صبية
بعد .. ما زالت عيوننا عربية^{٢٩}

القصيدة الثانية بعنوان (أين وجهي) وقد كتبها مطلع العام ١٤٠٠ وفيها

يقول :

أيها السيد !!..
ماء النيل ..؟!
لا يروي العطاش الزغب
دعها !!..
ذلك " المخصي " .؟؟
لا السوط
وليست " دار لقمان "
سينزعن عن الأبق إيمان الأذية^{٣٠}

^{٢٩} ديوان انتقضي أبتها المليحة (الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٩٨٣/١٤٠٣) ص ٤٧
^{٣٠} السابق ، ص ٩

والقصيدة الثالثة بعنوان (أحزان النخيل في أسوان ^{٣١}) وقد كتبها في الشهر الثالث من عام ١٤٠٠ هـ وفيها يقول :

“وكافور” في الردهات
ينادم في مجمع المذنبين العصاة

مئات الخصيِّ
ينادم في لهوه الساقطين
وحتى الثمالة نادم
ألقي الحبال لديهم
وألقى مئات العصي
فما أفلح السحر
حتى ولا أفلح “ السامري ”

أما القصيدة الرابعة فهي بعنوان (الخطبة الأخيرة على أسوار بابلون) وهي غير مؤرخة بالديوان ولكن موضوعها يؤكد بأنها ليست بعيدة بالتاريخ عن القصائد السابقة . وقد قسمها إلى خمسة مقاطع ، خص كافورا بالمقطع الرابع الذي يقول فيه :

ما أعجب أمرك !!
يا زمن الغفلة؟!
يا زمن النسيان؟!
يا زمن الحزن وقتل الأوطان
ما أعجب أمرك ..!!
غلما ن “ الأبق كافر ” رهان

وكل هذه القصائد لا تخلو من توظيف كافور كرمز للخيانة والتخاذل إما بخطاب مباشر له ، أو بالحديث عنه بضمير الغائب . ويرد إما باسمه الصريح ، أو بكنيته (أبو المسك) أو موصوفاً (بالمخصي أو الأبق)

ولا نرى هذا التوظيف لهذه الشخصية إلا في موضوع واحد هو صلح الرئيس السادات ومعاهدة السلام مع إسرائيل ، وذلك في نظر الشاعر جبنٌ وخيانة تستدعي إلى ذاكرة الشاعر كافور الإخشيدي العبد الخصي . وهي مغالطة تاريخية مخالفة لتاريخ

كافور السياسي الذي أوردنا جزءاً منه آنفاً ، ولكن الشاعر كان يصدر من ذاكرة جماعية تختزن صورة نمطية عن العبد الخصي ومكانته في المجتمع بقدر ما كان يصدر عن ذاكرة شعرية صنعها المتنبي ، وهو هنا يسقط الملامح السيئة في الشخصية المعاصرة “ على شخصية تراثية تشترك مع الشخصية المعاصرة - من وجهة نظر الشاعر - في الملمح ذاته بمعنى أن الشاعر هنا يعمل على تغيير وإعادة خلق مفردات التراث ، وذلك بأن يمنح الشخصية التراثية ملمحاً معاصراً جديداً لم يكن لها في مصدرها الأصلي ” .^{٣٢} فهل ذلك يعني أن أحمد الصالح كان يوظف الشخصية التراثية توظيفاً عكسياً ؟ كل القرائن في (كافورياته) لا تدل على قصده إلى ذلك ، ولا يمكن اعتباره توظيفاً عكسياً ما لم يقصد الشاعر إليه متلبساً بالسخرية من الواقع الذي يناقض تلك الشخصية التراثية ؛ فالتوظيف العكسي ، كما يرى على عشري زايد ، “ يتمثل في توظيف الملامح التراثية للشخصية في التعبير عن معاني تناقض المدلول التراثي للشخصية ، ويهدف الشاعر من استخدامه هذا الأسلوب في الغالب إلى توليد نوع من الإحساس العميق بالمفارقة بين المدلول التراثي للشخصية والبعد المعاصر الذي يوظف الشخصية في التعبير عنه ” .^{٣٣} ومفهوم التوظيف العكسي الذي أشار إليه عشري زايد لا ينطبق على كافور فقط في شعر أحمد الصالح ، بل ينطبق أيضاً على شخصية المتنبي المصاحبة لكافور كما يتضح من

^{٣٢} أشجان هندي . توظيف التراث في الشعر السعودي المعاصر . (الرياض : النادي الأدبي ١٤١٧ / ١٩٧) ص ٤٦
^{٣٣} على عشري زايد ، ص ٢٠٣

سيرتيهما ، ونستطيع أن نلمح ذلك في قصيدته (في ضيافة أبي الطيب) التي كتبها بعد زيارة السادات إلى إسرائيل في نهاية ١٣٩٧ وهو يستجد بالمتنبي (العروبي الأبوي) طبقاً لنظرته وكأنه البطل المنقذ للقضاء على كافور (الخائن)، يقول في تلك القصيدة :

يا أبا الطيب
ما أنضجت جلد الآبق المخصي
ما كشفت عن سوءاته
إن أحداث أبي المسك تعاويز حواة

وتعاويز القوافي - يا أبا الطيب -
أقوى أبجدية
يا أبا الطيب
هذا تخت بلقيس
وكافور ...؟!
بييع التخت في سوق المزادات
كأسلاب سبية
إن في عينيه أمراض النخاسات
وفي أذنيه يدمى الجرح
ما اهترت به النخوة ... يوماً
أو سرت في نبضه روح الحمية

والقارئ المطلع لن يخطئ التقدير حين يربط بين هذه القصيدة وقصيدة أمل دنقل (من مذكرات المتنبي) التي تحدثنا عنها وأوردنا جزءاً منها آنفاً ، وكأنها معارضة صريحة لها ؛ فالأحداث المعاصرة التي اعتبرها الشعاران خيانة وجبنا أمام العدو استدعت إلى ذهنيهما المتنبي كرمز للروح العربية الأبية ، على الرغم مما في شعره من سخرية بالعرب وعاداتهم المتوارثة في الكرم إرضاء لممدوحه غير العربي وكأنه أحد

الشعراء الشعبويين، كما سوف نرى لاحقا ، كما استدعت هذه الأحداث كافر الإخشيدي كرمز للخيانة والجبن ، على الرغم من أن تاريخه السياسي الذي أشرنا إليه في بداية هذا البحث تاريخ بعيد عن ذلك . وسبب هذه المغالطة ، كما أرى ، أن هذين الشاعرين ، دنقل والصالح ، وقعا تحت تأثير الصورة النمطية في المتخيل الجماعي عن العبد الخصي فاستسلما بشكل تلقائي للذاكرة الشعرية التي حملت إلينا الصورة السلبية لكافر الإخشيدي التي أرادها المتنبي فربطها بين هاتين الشخصيتين (كافر والمتنبي) في قصيدتيهما متخذين من الأول رمزا للخيانة والخنوع، ومن الثاني رمزا لإبء ذلك ، وهذا ما كان

المتنبي يسعى إليه ، ويستमित لتثبيته في أذهان سامعيه ، وهو قلبٌ للحقائق استطاع بسطوته البيانية أن يفرضه على القارئ المثقف ، بله العادي ، بطريقة سحرية ، وهذا يعيدنا إلى أسطورة الأصل السحري للهجاء التي تحدث عنها بروكلمان وقرونباوم ، وناقشها الدكتور عبد الله الغدامي في كتابه (النقد الثقافي) في سياق حديثه عن النسق المضمّر ودور الخطاب النسقي في تشكيل الشخصية والذاكرة العربيّتين على مرّ العصور، وقال في معرض حديثه عن المتنبي : " إذا ما قلنا إن نص الهجاء هو النواة النسقية لنص المديح ، وأخذنا في الاعتبار الأصل السحري للهجاء من حيث هو خطاب عدواني ضد الخصم يقوم على رغبة التدمير ، فإن الشاعر قد وجد سلطته الثقافية عبر استغلال هذه القوة التأثيرية للخطاب وذلك لفرض الأنا المفردة الطاغية ، وسحق الآخر ، ولن نجد أكثر من المتنبي تمثيلا لروح الخطاب النسقي ، ولن يكون غريبا للأسف أن يحظى المتنبي بإعجابنا المفرط مذ كان هو الشاعر الأكثر نسقية ، وليس إعجابنا به إلا استجابة نسقية غير واعية منا إذ إننا واقعون تحت تأثير النسق الذي يحرك ذائقنا ويحدد خياراتنا . " ٣٤ .

^{٣٤} عبد الله الغدامي . النقد الثقافي . ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية . (بيروت : المركز الثقافي العربي ، ٢٠٠٠) ص

إن المتنبي في تاريخه الحافل بالمغامرات والرحلات كان ، منذ نشأته الأولى ، يسعى إلى مجد شخصي فقط ، لا مجد جماعي تعود من خلاله السيادة العربية على أقاليم الدولة الإسلامية ، ويكتسب هو من خلال ذلك مجدا شخصيا وتاريخيا كما هي حال الأبطال التاريخيين ، ولا أدل على ذلك من هجائه كافر الإخشيدى لأنه لم ينط به ضيعة أو ولاية ، ومدحه بني بويه الأعاجم ووزراءهم طلبا للمال ، وتاريخ هؤلاء معروف ضد الدولة العربية وخلفائها في بغداد ، ومن يقرأ شعر المتنبي يجد أن الرجل لا يفكر إلا بنفسه وما يمكن أن يتقاضاه من ممدوحه لقاء ذلك ، فهو في حقيقته تاجر يبحث عن يدفع أكبر قيمة لما لديه من سلع نادرة . وهذه الظاهرة تتبه لها كثير ممن كتب عنه ،

فعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقول حسين مؤنس عن شعر المتنبي : “ إنه يدور كله حول موضوع واحد هو أبو الطيب المتنبي ؛ فقد عاش الرجل في الدنيا وكأنه ينظر في مرآة ليس فيها إلا رسمه ، والدنيا كلها عنده حاشية على حياته ، ومهما تقرأ من شعره فأنت لا تجد فيه إلا المتنبي ، وهو يفخر بنفسه من مطلع الديوان إلى آخره ، وليس في قلبه مكان لغيره من البشر ... والحقيقة التي تخرج بها من ديوان المتنبي أن شعره كله مدح في نفسه ، وأيا كان موضوع قصيدته فلا بد أن يدور في نهاية الأمر على شخصه ، وهو يزعم لنفسه أن الله لم يخلق شاعرا سواه ”^{٣٥} ورآه غازي القصيبي - على الرغم من شغفه بالمتنبي - شاعرا أجيرا بعد أن فشل أن يصبح شاعرا ملكا ، يقول القصيبي في ذلك : “ حاول المتنبي أن يكون شاعرا / ملكا - هل يوجد سبب آخر يفسر إصراره المستميت على ولاية ؟ - ولم ينجح وحاول أن يكون شاعرا فارسا ولم يوفق . جرب وظيفة في بلاط سيف الدولة إلا أنه ما لبث أن ملها . كان المتنبي - شاء عاشقوه أو كرهوا - شاعرا / أجيرا ينتقل بين مختلف أصحاب العمل . ”^{٣٦}

^{٣٥} حسين مؤنس . تاريخ موجز للفكر العربي . (القاهرة : دار الرشاد ١٤١٦ / ١٩٩٦) ص ٢٧٥ وما بعدها
^{٣٦} غازي القصيبي . عن قبيلتي أحدثكم . (لندن : منشورات الزمان ، ٢٠٠١) ص ٤٦

ولسوء حظ كافور أن الظروف وضعت في طريق المتنبّي بعد رحيله من بلاط سيف الدولة غنيا يحمل من نفائس الأموال وكرائمها ما يجعله يزهد بكل ما لدى كافور من مال ويطمح إلى ولاية تكمل مجده الشخصي ليتحقق قوله :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده^{٣٧}

وأحسب أنه لو جاءه محتاجا إلى مال لتغير موقفه تجاهه ، بدليل أنه حين قضى فترة في العراق تزيد على ثلاث سنوات وأحس بالحاجة إلى المال وجد نفسه مضطرا إلى الاتجاه نحو الشرق لامتداح بني بويه الفرس ، وكان بإمكانه أن يعود إلى سيف الدولة الذي ما برح يغريه بالعودة إليه ، غير أن إغراء كنوز الشرق كان أقوى من إغراء دويلة

صغيرة أنهكت الحروب خزينتها كما أنهك المرض أميرها ؛ ولهذا فإنه حين وقف أمام عضد الدولة قال ، متجاهلا كل من سبقه من ممدوحيه السابقين :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها
ثم يقول مستجديا :

هو النفيس الذي مواهبه أنفوس أمواله وأسناها^{٣٨}

ولا غضاضة عنده في النيل من العرب في سبيل إرضاء ممدوحه غير العربي ، فلنستمع إليه يمدح ابن العميد ذا الأصل الفارسي معرضا بالعرب الذين سماهم (الأعراب) وفي هذه اللفظة ما فيها من تعريض معروف وهو تعريض بكل من مدحه من العرب ، وهؤلاء الأعراب ، في نظره ، لا يجيدون سوى نحر الإبل قرى لضيوفهم ، ولا يوقدون إلا الرمث، بينما غيرهم ، والمقصود الفرس ممثلين بابن العميد ، ينحرون لضيوفهم بدر الذهب ويوقدون لهم العنبر ، على الرغم مما ناله من بدر وعنبر عند سيف الدولة ، يقول مادحا ابن العميد وساخرا من العرب الذين سماهم الأعراب :^{٣٩}

^{٣٧} ديوان المتنبّي ٢ / ١٢٣

^{٣٨} ديوان المتنبّي ، ٤ / ٤٠٤

^{٣٩} ديوان المتنبّي ، ٢ / ٢٧٥

من مبلغ الأعراب أني بعدها
ومللت نحر عشارها ، فأضافني
إلى أن يقول عن ناقته :
أرايت همة ناقتي في ناقاة
تركت دخان الرمث في أوطانها
وتكرمت ركباتها عن مبرك
شاهدت رسطاليس والإسكندرا
من ينحر البدر النضار لمن قرى
نقلت يدا سُرْحاً وخفا مجمرا
طلباً لقوم يوقدون العنبرا
تقعان فيه وليس مسكا أذفرا

وإذا كان هذا هو الموقف العملي للمنتبي من القيم التي طالما نادى بها في شعره ، فهل يمكن أن يكون رمزا للآباء العربي والقومية العربية ؟ إنني لا أشك في اطلاع الشعراء العرب المعاصرين على تاريخه ، ومقدرته على التلون بألوان كل مرحلة حسب

ما تقتضيه مصلحته الشخصية . وإذا كان الأمر كذلك ، فما السر الكامن وراء نظرة هؤلاء الشعراء للمنتبي نظرته للبطل المنقذ ذي الشخصية العربية الأبية ؟ وهل شخصية المنتبي بكل ما فيها من تناقضات تمثل رمزا عربيا يحرص الشعراء المعاصرون على استحضاره في أوقات ضياع الهوية العربية ؟

لقد حاول غازي القصيبي ، المعروف بشغفه بالمنتبي ، تلمس الأسباب الكامنة وراء الحضور الطاغى للمنتبي في هذا العصر فقال : " مالذي حول شاعرا أجيروا إلى أعظم شعراء العربية عند البعض ، وإلى واحد من أعظمهم في نظر الجميع ؟ وما الذي يجعل منه في أيامنا هذه أكثر معاصرة من معظم المعاصرين ؟ ولما ذا يروي الناس حتى العامة أبياته من المحيط إلى الخليج ؟ ... كان المنتبي ككل شاعر عظيم قادرا على تصوير النفس البشرية مجردة من قيود الزمان والمكان ، كان يملك حاسة سادسة ، لا نعرف كيف ولماذا جاءت ، جعلته وثيق الصلة بالنفس العربية تحديدا وبكل همومها وتطلعاتها ... عبر المنتبي بصدق عن ظمأ هذه النفس المتحرق إلى الأمجاد ، وسخر من قيادات زمنه : الأصنام التي لا تحمل عفة الصنم ، والأرانب النائمة بعيون مفتوحة .

ووصف باحتقار الشعوب الخائعة التي تُرعى وكأنها قطعان غنم . وتحدث بوجع عن عيش الذليل الذي يتحول إلى موت أسوأ من الموت الحقيقي ، ولم يتورع عن وصف الأمة بأسرها بأنها أضحوكة الأمم ”^{٤٠} ثم يتساءل القصيبي بعد ذلك قائلاً : “ هل يستطيع عربي معاصر أن ينكر أن هذه المشاهد العربية الأليمة لا تزال أمامنا بعد أكثر من ألف سنة من رحيل الشاعر ؟ وهل يستطيع أحد أن ينكر أنه لا يوجد بين الشعراء المعاصرين من عبر عن الفجيعة إزاء هذه المشاهد تعبيراً يرقى إلى مستوى المتنبي ؟ ”^{٤١}

^{٤٠} غازي القصيبي . عن قبيلتي أحدثكم . ص ٤٧-٤٨

^{٤١} السابق ، ص ٤٨

